عصر جميل

عاش جميل فى القرن الأول للهجرة.

وهو قــرن حافل بأحداث السياســة: تحولــت فيه الدولة الإســلامية من نظام إلى نظام، ومن قطر إلى قطر، ومن ســيرة إلى ســيرة. فخرجت من الخلافة إلى الملــك الموروث، ومن الحجــاز إلى الشــام، ومن بســاطة الحياة الدينيــة إلى بذخ المعيشة الحضرية التى جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم.

وليــس بنا فى هذه العجالة أن نســجل حوادث العصر كله أو نتعقبهــا من بدايتها إلى نهايتها تعقــب تفصيل أو تعقب إجمــال، فــكل أولئك لا يعنينــا فيما نحن فيــه إلا من طرف واحد: وهــو الطرف الذى يتصل بحياة شــاعرنا جميل، ومن شابهه من الشعراء فى بيئته وزمانه.

وأوجز ما يقال فى تلك البيئة إنها البيئة التى تخرج أمثال جميــل من شــعراء البادية المحيطين بالحضــارة الحجازية، والمتصلين بحواضرالإسلام فى مصر والشام.

فالعصر الذى عاش فيه جميل بالحجاز كان عصر استئناف للحياة الحجازيــة قبل ظهور الدعوة الإســلامية، ولكن على نحو جديد.

وكان المعــول الأكبر فــى الحجاز على حيــاة المدن التى يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسك السنوية. وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واســتقبال القصــاد، فاجتمع فيها الثراء بأيدى السراة وأصحاب القوافل والأموال الغادية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء، واجتمع مع الثراء ما يتبعه أبدًا من الترف واللهو والإباحة وإيثار الدعة والرخاء.

ثم ظهرت الدعوة الإســلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المســلمين والمشــركين، ثم علت كلمة الدين فى عهد النبى عليه الســلام وفى عهد خلفائه الراشــدين، فعــز على أصحــاب اللهو والتــرف أن يتمــادوا فيما كانوا فيــه، فاهتدى منهم من اهتدى واســتتر منهم من بقى على ضلاله، ووجد أكثرهم منصرفًا له عن معيشته الأولى فى هذه المعيشــة الدينية الجديدة، وفى شواغل السياسة والحرب التى كانت تزدحم بها عواصم الدولة الإسلامية، وهى يومئذ عواصم الحجاز.

ثــم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشــدين عن تلــك العواصم، وتيســر للمترفين ما كان متعســرًا قبل ذلك مــن ضروب اللهو والمتعة، مع اختلاف محسوس تقضى به رعاية الدين.

وانتقلت الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام فتفرغ أولئــك المترفون لحياة الفــراغ التى لا رقابــة عليها، وربما تجاوز الأمــر قلة الرقابة إلى التشــجيع على حيــاة المجون والبطالة. لأن أصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشــون من أبناء الرؤساء فى الحجاز أن ينصرفوا عن حياة الفراغ إلى حياة الجد والطموح، فليس فى جدهم وطموحهــم أمان للدولة الجديدة، وإنما الأمان لها كل الأمــان أن يلعبوا ويرتعوا ويجتمعوا على اللغو والفضول وإيثار الدعة والرخاء.

فاســتأنفت الحواضــر الحجازية تاريخًــا قديمًا طويلا فى اللهو والمجون، وعادة «الظرف» المأثور فى عرف أولى النعمة أن يصبحوا ويمسوا بين المنادمة والمسامرة، وأحبها وأشيعها حديث الغزل ووشايات الغرام.

هذه الحياة عدوى لا يســلم منها من عــاش فيها ولو كان مطبوعًــا على الجد والطموح، لأنهــا كالجو الذى يتنفس فيه كل متنفس يشــاء أو لا يشــاء، وغاية ما فيها مــن فروق أن

البنية السليمة تقوى على أنفاس ذلك الجو من حيث تضعف عنه البنية السقيمة. أما الهواء الذى يتنفسونه جميعًا فلا اختلاف فيه.

فمن أشجع الرجال الذين نشأوا فى تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم فى شمائل النبل والشمم والمضاء.

وكان له من الجد ما يشغله عن معيشة أهل البيئة التى نشأ فيها، وينجيه من أوهاق[1] المتعة التى يتمرد عليها من طبع على غراره، لو كانت هناك منجاة.

كان مع عمه عبد الله صاحبى ملك ينافس ملك بنى أمية، وتولى البصرة والكوفة والعراق فضبط أمورها واستبقاها زمنًا على الولاء له ولأهل بيته. ونهض عبد الملك بن مروان لقتاله بنفسه، فأنفذ إليه الجيوش وراء الجيوش، فكان يبرز لها ويضربها ويفرق شملها. ثم أوفد إليه أخاه محمد بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقين ما دام حيًّا وصلة من المال تبلغ ألفى درهم. فأبى مصعب إلا أن يقاتل حتى يغلب أو يموت

(١) الوهق: حبل يوضع فى عنق الدابة له أنشوطة.

دون التسـليم. وخذله أصحابه طمعًـا فى هدايا بنى أمية، فما زال فى البقية الباقية من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات.

قيـل إنَّ عبد الملك بـن مروان جلس بعدهـا بين أصحابه يسـألهم: من أشـجع الناس؟ وهم يروغون فى الجواب، فقال لهم: بل أشجع الناس مصعب بن الزبير، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأباها وآثر الموت على التسليم.

وتلك شـهادة عدو لا ينفعه أن يكتمها، لأنها أشهر من أن يحجبها الكتمان.

فالحق الذى يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصدقاؤه أنه شـجاع وأنه نبيل، وأنه لا يقرن بالجد والطموح لذة من لذات الدنيا.

ومع هذا حسـبنا أن نذكر له حكايتين اثنتين لنذكر كيف شـاع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغـزل فى البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به آدابها ودواعيها. فكل حديث عن الغزل والتهالـك عليه مصـدق إذا قوبل بهاتيـن الحكايتين من هذا الرجل الذى قل نظراؤه فى الجد والطموح.

إحداهما تتصل بشاعرنا جميل وتدور على بيتين قالهما فى صاحبته بثينة، وهما:

ما أنس لا أنس منهـا نظـرة سلفت
بالحجر يوم جلتهـــا أم منظـــور
ولا انسلابتهـا خرسًا جبائرهـــا
إليَّ من ساقـــط الأرواق مستـــور[1]

قيل: إنَّ مصعبًا سـمع البيتين فود لو يعرف كيف جلتها. فأنبـأوه أنَّ أمَّ منظور التى أشـار إليها الشـاعر لا تزال بقيد الحيـاة... فكتب فـى حملها إليـه مكرمة. وحملـت إليه، ووصفـت له تلك الجلوة فقالت: «ألبسـتها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئًا مـن الخلوق – أى الطيب – ومـر بنا جميل راكبًا ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنها.

فقال لها مصعب: فإنى أقسـم عليك ألا جلوت عائشة بنت طلحة مثل مـا جلوت بثينة. ففعلت. ثـم ركب مصعب ناقته وأقبـل عليهما وجعل ينظر إلى عائشـة بمؤخر عينه ويسـير حتى غاب عنها، ثم رجع!

(١) الروق: الفسطاط، والحبائر: الدمالج والأسورة، والحجر: اسم موضع.

أمـا الحكاية الأخـرى فتدور على بيتيـن لتلميذ جميل – ونعنى به كثيّر بن عبد الرحمن – وهما:

وما زلت من ليلى لدن طَـرّ شاربـــى
إلى اليوم أخفى حبهـــا وأداجـــن
وأحمل فى ليلـــى لقـــوم ضغينَة
وتحمل فى ليلى علـــى الضغائـــن

وخلاصتهمـا أنَّ مصعبًا أبصر الشـعبى – الراوية المحدث المشـهور – وهو فى المسـجد فأمره أن يتبعه، وتقدمه وهو لاحق بـه، حتى دخل منزلًا ثم دخل إلـى حجلة فى المنزل ووقف الشـعبى ينتظر، فإذا جارية قـد خرجت تقول له: إنَّ الأمير يأمرك أن تجلس، فجلس على وسـادة وارتفع سـجف الحجلـة عن مصعب بن الزبير، ثم ارتفع السـجف الآخر عن عائشة بنت طلحة.

قال الشـعبى: فلم أَرَ زوجًا كان قط أجمل منهما، ثم سألنى مصعب: هل تعرف هذه؟

قلت: نعم!

قال: ومن هى؟

قلت: سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة.

قال: لا، ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر:

ومازلت من ليلى لدن طر شاربى... وأنشد البيتين

ثم قال: إذا شئت فقم!

فلما كان العشى دخل الشعبى المسجد، فإذا الأمير جالس على سريره فيه، فاستدناه وسأله: هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط؟

فقال الشعبى: لا والله.

قال الأمير: أفتدرى لم أدخلناك؟... لتتحدث بما رأيت

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى فروة فأمره أن يعطيه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبًا.

قال الشعبى: فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به: بعشرة آلاف درهم، وبمثل كارة القصار[1] ثيابًا، وبنظرة من عائشة بنت طلحة!

وكلام العالم المحدث هنا يتمم كلام الأمير المكافح المقدام: كلاهما شاهد على شأن الغزل فى ذلك الجيل، حتى ليحسب

(١) القصار: الذى يحور الثياب، والكارة: ما يجمع فيه ثيابه.

العالم النظرة من الحسناء جائزة تقرن بعشرة آلاف درهم، وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود أن يتحدث الناس بغرامه كما يتحدثون بغرام أولئك الشعراء.

ومتى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت فيمن هو أفرغ للمنادمة والسمر وأحاديث الحسان والعشاق: إنهم خلقاء ألا يفرغوا لحظة من هذه الأحاديث، ولا يزالوا بحاجة إلى الشعراء المنشدين يرددونها نظمًا وغناءً، وهى عندهم أحب ما يستحب فيه الترديد.

* * *

ذلك شأن الحواضر الحجازية.

وليست البادية من حولها بأقل غزلًا أو نظمًا فى الغزل من الحواضرعلى اختلافها، وإن تباينت الأساليب والآداب.

فلا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالا من الحاضرة، على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطوة الأولى.

لأن البدوى والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من الملاهى الحضرية التى تدور عليه وتحوم حوله فى المدينة الكبيرة.

وإن شئنا أن نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر أنواع الفنون التى يستغرقها الحضريون فى صدد العلاقات بين الرجل والمرأة ولا يتاح نظيرها لأبناء البادية.

فالمسارح، والأندية، ودور الصور المتحركة، والقصص المطبوعة، والمراقص، والمنازه التى يشترك فيها الرجال والنساء، والأغانى، والقصائد، وفروع كثيرة من التصوير والنحت والنقش والزينة – كلها معارض لتمثيل الغزل بأنواعه فى الحاضرة، ولا يقابلها فى البادية إلا غزل الشاعر بالحسناء، وما ينسج حوله من الأحاديث والدسائس والوشايات.

فالغزل وحده عند البدوى عوض عن هذه الأنواع المنوعة من أحاديث الرجل والمرأة فى المدينة العامرة، وهذا مع كثرة الشواغل فى المدن وقلة الشواغل فى البوادى، إلا ما كان من رعى أو سقى يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانهما إلى الغزل ولا يشغلانهما عنه، فضلا عن معيشة الفطرة بين الأحياء التى لا تنقطع فيها صلات الذكور والإناث، وليس الإنسان بدعًا بينها فى هذه الغريزة الفطرية.

فالبادية مَهْدُ الغزل قبل الحاضرة.

وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلى من أن يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر فى كل حين.

إلا أنَّ البادية تتقيد ببعض القيود التى تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين.

لأن «المنعة» ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء، وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح.

وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة. فمن شرف «البدوى» أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير. وهذا هو القيد الذى يختلف به أهل البادية من أهل المدينة ولكنه قيد «سيئ الحظ» كجميع القيود التى تحيط بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى.

فمنذ القدم والقيود التى تفرضها العادات تتوالى على الرجال والنساء بما يطاق وما لا يطاق، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى كثير من الإغضاء والتعامى عن تلك القيود. فهى موجودة ومفتاحها موجود، ولا يزال القيد منها مقروناً بمفتاح.

فـإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسـمحت من ناحية أخرى. وقد يغض الرجل المتدين بصره إذا مرت به حسـناء يخشىفتنتها، ولكنه يسمع بيتًا فى الغزل وهو غاض عينيه فلا يغلق دونه أذنيه.

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف وللرعاية والإهمال، وللمحاباة والاحتيال.

فقـد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فتهدأ فيها سـورة القتال وتضعـف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسـطوة، وقـد يطول بها عهـد الفاقـة فيترخص أبناؤهـا وبناتها فى الأمور التى كانوا يتشددون فيها ويستكينون للسبة التى كانوا يتذمـرون منها، وقـد تجاوز قبيلة قبيلة أقـوى منها فتنزل على حكمها وتصبر على نـزوات أهلها، وقد تجاور الحاضرة فتجرى على سنة الحضريين فى الرفق والدماثة، وتنزل شيئًا فشيئًا عن الجفوة والخشونة.

وكل أولئـك كان يحـدث فى القبائـل الحجازية على عهد جميل. كان منها من اسـتغنى عن القتال بعد أن تكلفت الدولة القائمة بصيانة الحقوق ومنع العدوان وجزاء المعتدين.

وكان منها من طـال فيهم الغنى كآل جميل، ومنها من قل غناهم وجاوروا من هـم أقوى منهم كآل بثينة، وكانوا جميعًا يختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الخشونة على البادية وأهلها.

فاتسـع ميدان الغزل حاضرًا وباديًا، وظهر شـعراء النسيب بنوعيه، تغنيًـا بامرأة واحدة كما يغلب على شـعراء البادية، أو تغنيًا بالحسان جميعًا كما يغلب على شعراء الحاضرة، وتهيأ العصر لطائفة من شـعراء المدرسـتين على رأسهم عمر بن أبى ربيعة يتغنى بحسـان مكة وكل حسناء تقبل عليها، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها.

* * *

وما فتئت البادية العربية منذ القدم ميدانًا فسيحًا للقوالين والرواة، لأنهم سـلاح من أسـلحتها ومصلحة مـن مصالحها وثقافة أدبية تعدل عندها ثقافة الفنون والآداب والتواريخ فى أمم الحضارة.

ولها معهم عرف ذو وجهين يجرى على الرياء والمداراة، ولا سيما فى الغزل والفخر الحماسى. وهما قوام الشعر البدوى أو قوام كل شـعر على الفطـرة عنيت بحفظه الجماعات الأولى

فهى تحـــرم الغزل ببناتها ولكنها تحفـظ للأعقاب منظومات شـــعرائها، ولـــو كان عرفها فى هذا البـــاب ذا وجه واحد لما بقيـــت لنا قصيدة من قصائد العشـــاق ولا خبر مـــن أخبارهم، ولا قصة من قصص الشـــعراء الواصفين والحســـان الموصوفات. ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شـــاعر فى حسناء وبكل مســـاجلة بين عاشـــقين كأنهـــا من وثائـــق التاريخ التى لا تنســـى، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقصرون فى كراهة المحظـــورات، فإنهم فـــى الواقع يبلغون مـــن كراهتها أقصى ما فى وســـعهم أن يبلغـــوه، ولكنهم يفعلون ذلـــك لأن بواعث الحب فى الفطرة الإنســـانية أقوى مـــن أن يكبحها العرف أو يقضـــى فيها بقضاء واحد، فلابد من التجوز والإغضاء، أو لابد هنا من عرف ذى وجهين.

أما الفخر الحماســـى فموضع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر ويفخرون بكلامه، فربما ارتفعت قبيلة بكلام شـــاعر وهو بينهم فى مكان غير رفيـــع، وربما كان تحريمهم زواج الفتاة بمن ينظم فيها الغزل ضربًا من ازدراء الشعراء كما كان ضربًـــا من حماية العرض ومنع الذمار. إلا أنهم فى الفخر كانوا أصرح منهم فى الغزل والنسيب. فربما اجتمعت القبائل

علانية لسماع شاعرين يتراجزان ويتناجزان، ويذكران الأعراق والأوطـان، ولم تأذن بإعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم إلا من وراء أذن السامع وعين المشيح.

وقد كان لجميل حظه الوافى من الحالين فى الغزل والفخر على السـواء، فسـارت الركبـان بأحاديث هـواه و«تجمعت الأعاريب أرسـالا» لسـماع أراجيزه فى الفخر بذويه، وخرج من حلبة الفن بنصيبين متناقضين: فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال بينه غزله وبين صاحبته على ما كان له بين قومه مـن مكانة وثراء، وأما شـعره فقد ظفر بكل عناية فى وسـع قبيلة بادية، ولا سـيما الغزل الذى منعوه وأوشـكوا من أجله أن يقتلوه.

ومهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفًا يسـمح بغزله ويسـتدعيه ويسـتبقيه، أو كان عرفًا صالحًا لتشـجيع العاشقين، وإن لم يكن صالحًا بينهما لوئام الزوجين.

وتاريـخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف، ولكنه يجمع الشـعر الذى قاله العاشق ولو جنى عليه؛ وهكذا صنع بشعر جميل.